الثنائية والألسنية السامية

للأستاذ الأب مرمرجي الدومينيكي

من البحث القيم الذي ألقاه الأب الفاضل في الجلسة الأخيرة لمجمع فؤاد الأول بدعوة منه

من المتجلي للعيان ولا يختلف فيه اثنان هو أن مصر المحروسة متبوئة عرش الزعامة والتقدم بين سائر البلاد العربية ، ولا سيما في ميدان النهضة الثقافية والعلمية واللغوية . ومن ظواهر ذلك الجامعات المتعددة ودور العلوم ودور الكتب الكثيرة ، ولجان التأليف والترجمة والنشر . ومن ذلك خاصة خدمة اللغة العربية والسعي في إنعاشها لتصبح آلة مرنة فتجاري الحضارة والمعارف العصرية . ومن تلك الوسائل الفعالة هو مجمعكم الموقر المحلى باسم مؤسسه؛ ذلك العاهل الأعظم حامي العلم واللغة ملك مصر «فؤاد الأول» وتحت ظل ورعاية نجله وحامه الملك المعظم فاروق الأول المالك سعيدا . ولذا أشعر بغبطة وحبور لوجودي بينكم ، أنتم علية أرباب العلم والأدب والحكمة ، وسدنة حرم هذه اللغة العربية الكريمة ، سيدة جميع لغات بني سام . وقد لبيت بكل افتخار دعوتكم اللطيفة لأبسط لكم كيفية محاولتي المؤازرة في خدمة المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ، وهي وسيلة قد بذلت الجهد في تأليق قصد تبيان فوائدها الجمة ، وإن ظهرت في أول وهلة غير مألوفة . فأقول :

من العلوم العصرية التي نشأت على يد أرباب البحث في البلاد الغربية «علم المقارنة» الذي طبقوا أصوله على مختلف الفروع العلمية ، فنجم عن ذلك حقائق ثمينة ومفيدة ، كانت بقيت مجهولة لولاه . فهناك اليوم علوم مقارنة الفلسفات والشرائع والآداب واللغات . وضمن دائرة اللغات تولدت موازنة الصوتيات والصرفيات والنحويات والمعجميات ومن ذلك كله المقارنة الألسنية السامية

ومعلوم أن الساميات الأمهات تنقسم إلى طوائف ، منها الطائفة الشرقية وهي اللغة الأكدية الداخل فيها الآشورية والبابلية ؛ والطائفة الغربية الشمالية الشاملة الكنعانية والأرمية والصمودية . الكنعانية فرعان : هما الفينيقية والعبرية . والأرمية فرعان أيضا : هما الأرمية الغربية ، والأرمية الشرقية . ولهجتها الفصحى هي السريانية . ثم هناك الطائفة الغربية الجنوبية الشاملة اللغات العربية واللغات الحبشية . العربية تنشعب إلى فرعين : العربية الجنوبية ، وفيها السبئية والحميرية ، والعربية الشمالية ، ولهجتها الفصحى هي العربية القرآنية . اللغات الحبشية ثلاثة فروع : الجعزية ، وهي الفصحى القديمة ، ويليها الأمحرية والتكرية

هذا ، ولم يعد يكفي للتقصي عن أصول الألفاظ العربية أو السريانية أو العبرية أن يكون الباحث متضلعا من واحد أو اثنين من هذه الألسن ، بل لا بد أن يكون واقفا على قواعد وخواص معجميات كل هذه الساميات الأمهات ؛ وما يرجع إلى كل واحدة منها من اللهجات ، فضلا عن معرفة بعض الألسنة غير السامية التي لها علاقة بالعربية أو بغيرها من الأخوات الساميات .

ثم إن علم التأصيل في المعجمية غير متوقف على الإشارة إلى كلمة من الكلمات مستعملة أو واردة في اللغة الفلانية ، بل الارتقاء إلى اللغة الأم الصادرة عنها اللفظة المذكورة . وغير كاف الوقوف عند اللسان القناة المارة فيه تلك المفردة ، فإن ادعى أحد الباحثين أن هذا الحرف سرياني دخيل في العربية ، وظهر بالتقصي أنه ليس بسرياني بل مصري ودخيل من اليونانية أو الفارسية أو الأكدية أو العبرية ، فلا يجوز إذ ذاك القول بسريانيته ، وهو غير سرياني ، إذ قد يكون دخيلا في كلتا اللغتين من لسان ثالث ، مثال ذلك الألفاظ التالية الواردة في العربية والسريانية مما : فردوس . . pardeyse ، بستان Bustana بيغا . . . . Babga ، باغ Bag ، باذنجان . . . . Badingana أسطوانة Estuna أبنوس Abanusa أسفين Esfina كبة ، كبنا ، بدوى ، بدوايا

فهل من المعقول الذهاب إلى أن كل هذه الكلمات سريانية دخيلة في العربية ، في حين أن التقصي يثبت أن الست الأول منها فارسية ، وأن أبنوس وأسفين من اليونانية ، وأن كبة وبدوى من العربية ذاتها ؟

ثم إن المقارنة الألسنية السامية غير متوقفة على البحث في لغة واحدة من الساميات ، بل في جميعها . ثم يتحتم اعتبار هذا المجموع كلغة واحدة قد تفرقت خواصها وأسرارها في مختلف

اللغات الأخوات ، مما يقتضي منه الاستعانة تارة بمميزات الواحدة لفائدة الأخرى ، وطورا السعي في إثارة الغامض في هذه بما هو واضح وصريح في تلك ، فلا يكفي والحالة هذه وضع أصول الساميات الأخر بإزاء المادة العربية ؛ لأن مثل هذا العمل لا يلقي على المواد المبحوثة إلا نورا ضئيلا ، ولا يأتي إلا بفائدة جزئية ، لعجزه عن إيضاح التناسق المنوي ، وإزالة التضارب والتنافر ، ليس بين المفاهيم العربية وحسب ، بل بين مداليلها ومداليل أخواتها السامية البواقي

ثم لتأصيل الألفاظ عن طريق الاشتقاق ، هناك قاعدة لازمة الاتباع ، وهي الانتقال من الفحاوى المادية المحسوسة إلى المدلولات المجردة والمجازية ، ومن حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، ومن مزاولة الرعاية والزراعة إلى معالجة الصناعات والفنون والعلوم . ومن هذا القبيل نجد العربية آلة من أنفع الآلات تبز سائر أخواتها السامية ، إن لم نقل اللغات البشرية

إن العائشين اليوم في عصر التمدن والرقي على اختلاف ضروبه ، ليكرهون البادية ماقتين حياتها البدائية ، وهذا معقول ، لأن الرقي غير متوقف على الرجوع إلى الوراء ، ولا على النزول إلى أسفل ، بل على التقدم دائما ليلوغ الكمال قدر المستطاع . ويود بعض معاصرينا إخلاء معاجمنا من كل الكلم التي يشم منها رائحة الحياة البدوية ، حتى لا يبقى فيها سوى الألفاظ والتعابير الحضرية ، لا بل العصرية الحديثة وما يلزم أن نستحدثه منها اندفاعا مع تيار التقدم المتواصل

هذا من حيث الروح والذوق العصري ، أما نحن ، معشر المتخصصين للمعجمية ، وما تشمله من اشتقاق وتأصيل وثنائية وأسنية ، فلا نتمالك من الإشادة بفضل أولئك اللغويين القدماء الذين قاموا بالرحلات العلمية ، قاضين السنين الطويلة بين ظهراني أهل الوبر ، فجمعوا لنا كل تلك المفردات البدوية الخالية منها الألسن السامية الأخر التي لم تجمع ولم تدون مفرداتها إلا إبان بلوغ أربابها طور الحضارة . فقد منها أغلب الأصول والرماس الأولية بمعانيها المادية المحسوسة . وفي هذا يظهر الفضل العميم ، فضل اللغة العربية على شقيقاتها ، والدليل الساطع على قدم ألفاظها ، مع أنها دونت بالكتابة آخر جمعها ، مما تحقق معه هذه الحقيقة الجليلة ، وهي أن العربية هي المفتاح النفيس لفك مغاليق كثير من ألغاز المعجمية السامية ، وذلك بالرجوع إلى الرس الثنائي الصائن عادة أقدم المدلولات ؛ أي الفحاوى البدائية الفطرية المحسوسة الملموسة

فلنر ما هي هذه الثنائية

إن طريقة الاشتقاق والتوسع في الساميات قائمة على الارتقاء من الأقل والأنقص ، إلى الأكثر والأكمل ، أي حسب السنة الطبيعية ؛ سنة الرقي ، وليس بالعكس إلا من باب الاختزال وهو نادر ، ولا يحدث في طور التكون والنشوء ، بل في عصر الكهولة والهرم . وأنا من القائلين بأن الاشتقاق في العربية تم بزيادة حروف ، لا بطريقة النحت أو التركيب . لأن اللغات السامية عموما ، والعربية خصوصا ، ليست بنحتية ، والعلاقة الأساسية الثابت وجودها في الغالب بين المشتق والمشتق منه هي اللحمة أو الصلة المعنوية ؛ مع توسع الدلالة وتطورها بالانتقال من حيز المعاني المادية الحسية إلى حيز المداليل المجردة والمجازية ، ثم العقلية الروحية

وفي طور التكون اللغوي تبدأ الزيادة بالحروف عن طريق السماع دون القياس ، فتنشأ بضرب من الفوضى ، ثم تسير رويدا رويدا في سبيل التكامل والاستقرار . فمنها ما يبلغ درجة القاعدة والقياس المطلق أو النسبي ؛ ومنها ما يتخلف فيبقى دون نظام ومما يساعد على استمرار هذه الحالة هو مفاجأة اللغة المتكلم بها بتدوينها بالكتابة ، وإنزالها منزلة اللغة الفصحى المتصفة بالميل إلى المحافظة على الحالة الراهنة قدر مستطاعها لمقاومة التطور الملازم طبيعة كل الأشياء

هذا ، وأنا من الذاهبين إلى عدم وجود علاقة طبيعية ضرورية بين الصوت أو الحرف أو الكلمة وبين المعنى المتعلق بها . لأن الأصوات مجردة ؛ وليس في طبيعتها ما يجعلها دالة حتما على الشيء الفلاني أو الفحوى الفلاني ، إنما تنشأ الصلة بين الصوت والمعنى اتفاقا ، أو بإرادة المتكلمين عن طريق السماع أو الاستعمال

أنا غير جاحد أن لبعض الكائنات الطبيعية دويا ، ولحيوانات أصواتا . بيد أن الناس لا يقتبسون القدرة على

التصويت أو التكلم بالتعلم من الطبيعة أو الحيوان . لأن ذلك من خاصية أعضاء النطق فيهم ، وبفضل هذه الخاصية يتمكنون من محاكاة دوى الطبيعة وأصوات الحيوانات ، لكن بطريقة متباينة ، إذ أن كل فريق أو قبيلة أو شعب يتوهم فيها سماع نوع من الدوى والصوت ؛ فيحاكيها طبقا لهذا الوهم

وبعض الأحيان تجرى هذه الزيادة بالحروف لمقاصد تلوح متضادة . دونكم أحرف المضارعة فإنها تستخدم لا لأداء دور واحد خاص بكل منها ، بل للقيام بأدوار عدة متمايزة . فالياء تستعمل للغائب والمثنى وللجمع المذكر والمؤنث ، والنون للمتكلمين لكنها تأتى أيضا فى السريانية للغائب المفرد والجمع ، وفى بعض اللهجات العربية للمتكلم . الهمزة تكون للمتكلم بيد أنها ترد للغائب فى طائفة من اللهجات المسفورة : التاء تدل على المخاطب المذكر والمؤنث ، وعلى المثنى والجمع المذكر والمؤنث . وكذا القول فى الميم الموجة بعض الصيغ . فإنها تدخل على اسم الفاعل واسم المفعول والمصدر الميمى واسم المكان والزمان واسم الآلة وفى كل هذه المبانى تختلف المداليل والحرف واحد

زد على ذلك أن الحرف عرضة للابدال فى العربية كما فى أخواتها السامية . فإن الثاء العربية تبدل تاء فى الأرمية وشينا فى العبرية والأكدية والحبشية . والذال العربية تبدل زايا فى العبرية والأكدية والحبشية ودالا فى الأرمية . ثم إننا نجد فى العربية العين والغين والحاء والخاء ، وفى اللغات الباقية لا يوجد سوى حرف واحد يقابل الاثنين العربيين ، وفى الأكدية لم يبق إلا الخاء ، فضلا عن هذا ، هناك التغير الطارئ على بعض الحروف بفعل التفخيم ؛ فإن التاء تفخم فتضحى دالا ، ثم طاء ، ثم ظاء ، والسين تفخم فتصبح صادا ، والضاد العربية تمسى مادا فى العبرية ، لا ، بل عينا فى السريانية ، وهلم جرا

كل هذا دليل على ما أبديناه من أن الحروف مجردة من ذات طبعها . إنما يخصص هذا مكان وأدوار بالسماع والاستعمال . ومن باب الإطلاق يمكن القول بأن كل الحروف — ما عدا المتناهرة غير القابلة التجاوز تركيبا ولفظا — تصلح لأن تكون حروفا للتوسع ، ولا سيما فى طور التكون ، أى طور الرساس الأولية الثنائية الذى يعقبه طور الثلاثية بزيادة حرف ثالث على الحرفين الرسيين . أما تداول هذه الحروف فتتباين ، إذ منها ما يستخدم أكثر ، ومنها ما يبقى نادر الورود

ولنا مثال فى العربية على بقاء حالة الفوضى وعدم الخضوع للقياس فى المصادر الثلاثية المجردة ، وجموع التكسير ، وحركة عين الماضى ، والمضارع ، من المجرد الثلاثى ، وعدم ورود كل المزيدات لكل واحد من المجردات . فإنها كلها لا ضابط لها ، فتستند على السماع ، وتعرف من المعاجم . وكذا القول فى الحروف التى تزاد على الرساس والأصول . فإن بعضها يستمر دون قيد ولا رابط على الحالة البدائية ، ولا اعتماد فى شأنها إلا على الصلة المعنوية بين المزيد والمزيد فيه ، قدر ما يتوصل إلى تحقيقها بعد التطورات والتقلبات الكثيرة التى طرأت على اللغة بكرور الأحقاب إلى أن بلغت طورها الحالى

أجل ، فى المزيدات الثلاثية والرباعية تجرى الزيادة غالبا بحروف معينة للدلالة على معان خاصة ، كما هو مفروض فى طور التصرف . إلا أن هذا ذاته لا يتم باطراد مطلق ، إذ لا يخلو من أثر الفوضى القديمة ، لأن كثيرا من هذه المزيدات المعدودة قياسية تعود إلى الدلالة على المجرد عينه ، زد على ماذكر أن هذه المزيدات يراد بها مفاهيم مختلفة ومبتعدة أحيانا غاية الابتعاد عن المعنى المقصود من زيادة الحرف المعين لهذه الغاية ، أعنى أنه لا يزال فيها شئ من الفوضى أو عدم الاستقرار الخاص بالطور القديم

دونكم مثلا ، وزن « أفعل » المزيد فيه همزة ، حسب قول الصرفيين ، للدلالة على التعدية نحو أجلسته ، أكرمته ، أبعدته . فإنه خلافا للقصد المتوخى من زيادة الهمزة ، يراد به فحوى الدخول فى الشئ . نحو أصبح : دخل فى الصباح ، والمبالغة نحو أشغلته : بالغت فى شغله . والصيرورة ، نحو أقفرت الأرض : أضحت قفرا . والسلب ، نحو أشفى المريض : ذهب شفؤه وأخيرا يأتى بمعنى المجرد ذاته ، مما يناقض المراد من الزيادة نحو أعلت البيع ، بمعنى علته أى فسخته . كذا وزن « فعل » المضاعف ، أى المكرر العين للتعدية فإنه يطلق ، فضلا عن هذه الدلالة الخاصة ، على التكسير ، نحو قطعت الحبل : جعلته قطعا . وعلى السلب ، نحو قشرت العود : نزعت قشره ، وعلى اتخاذ الفعل

بريطانيا العظمى

الأستاذ أبو الفتوح عطيفة

عتاب :

أخذ على بعض الأصدقاء من القراء الكرام أنني في هذا الوقت الذي نقف فيه بريطانيا ضد أمانينا القومية وحريتنا قد امتدحت الخلق البريطاني؛ بل إنني أفضت في الثناء على البريطانيين وكان العكس أوجب . وقد سرني عتابهم هذا ولكني وجهت إليهم السؤال التالي : « أتعتقدون أن البريطاني غير مخلص لوطنه ؟ وهل تشكون في تضحيات البريطاني من أجل وطنه ؟ فكان الجواب بالنفي . قلت « إن بريطانيا عظيمة لأن أبناءها مخلصون لها . » وإذا أردنا نحن أن نسود في أوطاننا وأن نسترد ماضي مجدنا فعلينا أن نقوى عزائمنا وأن نوحد صفوفنا وأن نقبل على التضحية كما كان يفعل آباؤنا وأجدادنا

وأمر آخر أحب أن ألفت النظر إليه، وهو أنه ليس من الخير لنا أن نتغاضى عن عيوبنا ، وأن نتجاهل أسباب قوة أعدائنا ، فيكون مثلنا كمثل النعامة التي تخفي رأسها وقت الخطر وتعتقد أنها بهذا قد أصبحت آمنة

وأمر ثالث أحب أن أذكره ؛ وهو أن هذه المقالات تتسم بسمة البحث العلمي ، والبحث العلمي يجب أن يكون بعيدا عن الأهواء الوطنية والعواطف السياسية، ومن ثم فأرى لزاما علي أن أعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؛ وإذن فيجب علي أن أمتدح البريطانيين حين يستحقون المدح، وأن أهاجمهم أشد الهجوم حين يستحقون ذلك . ولا يستطيع إنسان كائنا من كان أن ينكر عدوان بريطانيا علينا واحتلالها لأراضينا وعملها على فصل جنوب الوادي عن شماله ، وتشريدها لعرب فلسطين بمؤازرتها لليهود ، ولكني أحب أن أقول لقومي :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وأنا أعد حضرات القراء بأنني قبل أن أختم مقالاتي عن بريطانيا سأعقد فصلا خاصا عن علاقتنا بها وكيف يجب أن تقوم

مشكلات

ولعل حضرات القراء يوافقونني على أننا متخلفون عن ركب الحضارة قرنا كاملا ، وأننا في عصرنا الحاضر نواجه مشكلات واجهتها الأمم الأوربية في القرن التاسع عشر وتغلبت عليها . ولعل من الخير لنا أن نعرف كيف تغلبت أوربا على هذه المشكلات حتى ننتفع بتجاربها ونستفيد منها

تنقسم المشكلات التي نواجهها إلى قسمين : ١ : مشكلات سياسية وقومية وأهمها الوحدة والجلاء، وسأتناولها بالبحث حين أتحدث عن ألمانيا وإيطاليا

٢ : مشكلات اقتصادية واجتماعية وهي ناشئة عن دخول مصر في الدور الصناعي ، وسأتناول فيما يلي البحث في الانقلاب الصناعي في إنجلترا والمشاكل التي قامت بسببه وكيف عالجتها وتعالجها إنجلترا

الانقلاب الصناعي :

يقول أحد المؤرخين « إن الناس قد ظلوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يفلحون أرضهم وينسجون ملابسهم وينشرون أخشابهم ويصنعون قواربهم كما كان يفعل قدماء المصريين . » وهذا القول صحيح دون غير شك ؛ ولكن الجزء الأخير من القرن الثامن عشر قد شاهد انقلابين خطيرين وخطرين جدا ؛ وهما في الواقع أساس الحضارة الحديثة

من الاسم بنحو خيم القوم : ضربوا خيامهم . كذلك وزن « استفعل » الدالة فيه الزيادة على الطلب ، فإنه يستعمل أيضا لوجدان الفعل . نحو استعظم الأمر : وجده عظيما . وللتحول، نحو استحجر، وللتكلف ، نحو استجرأ . وللمطاوعة ، نحو أراحه فاستراح ، وأخيرا يرجع إلى قوى المجرد عينه كأنه لم تكن زيادة. نحو استقر بمعنى قر ، وقس على ذلك بقية الزيدات ، تلك التي تدعى قياسية بتخصيص دور الحرف المضاف إليها

البقية في العدد القادم الأديب مرسي الدوسيقي